أثر الدين في حركة الجهاد في أفريقيا ليبيا نموذجاً

د . محمود أحمد الديك
جامعة الفاتح

يعتبر القرن التاسع عشر مجالاً خصباً للدراسات التاريخية المتعلقة بالطرق الصوفية ، ودورها في مقاومة الاستعمار في أفريقيا ، فمنذ أن ترسخت أركان الإسلام تكونت عدة ممالك إسلامية كبيرة ، في شمال وشرق ووسط وغرب القارة ، فإلى جانب كونها أدت دوراً كبيراً في نشر الإسلام ومحاربة البدع والخرافات ، وتصحيح مسار الدين الإسلامي وتخليصه من الشوائب وما علق به ، بمختلف الطرق والأساليب الناجعة لتطهيره ، فإلى جانب تلك المهمة التصحيحية ، فإن العديد من هذه الطرق الصوفية قد حملت شعار ولواء مقاومة ومناجزة الاستعمار الأوربي ، بكافة صوره وأشكاله من منطلق ديني.[1]

إن دعوة ومفهوم الجهاد تعدت الجوانب السياسية العسكرية ، إلى المجالات الثقافية الدينية والاجتماعية ، وقد تطورت فكرة الجهاد الإسلامي إلى نجاح المسلمين

(1) عرف قاسم غني مفهوم التصوف بقوله: (التصوف أو العرفان في نظر المسلمين هو طريقة يمزج الدين فيها بالفلسفة، ويرى معتنقوها أنها هي وحدها الكفيلة بالوصول إلى الحق ، وهذا الوصول إلى الكمال والحق متوقف على السير والسلوك ، والتفكير والمشاهدة التي تؤدي بصاحبها إلى الوجد والحال والذوق ، وتوصل الإنسان في النهاية بطريقة رمزية إلى الله تعالى) ، راجع قاسم غني ، تاريخ التصوف في الإسلام ، ترجمه عن الفارسية صادق نشأت ، القاهرة 1973م. ص 13.

في تعبئة الرأي العام الإسلامي ، في محاربة الاستعمار الأوربي ، وخاصة في المناطق التي حاولت فيها القوات البريطانية السيطرة على شرق القارة الأفريقية ، في حين أن القوات الفرنسية سعت في مد نفوذها على منطقة المغرب الغربي ، ومناطق في غرب ووسط أفريقيا ، إلا أنها واجهت مقاومة عنيفة لم تحسب لها حسابا ، وهذا ما حدا بالقادة العسكريين الفرنسيين بالقول إن الممالك الإسلامية –التي كانت لها نفوذ كبير على الكثير من القبائل والمناطق الإسلامية– بأنها كانت تشكل العقبة الصعبة في فرض السيطرة الفرنسية على المناطق التي كانت تحتلها ، بقوة السلاح المتفوق على سلاح المجاهدين البدائي .

ومن مقومات تطور فكرة الجهاد في أفريقيا ظهور بعض الزعامات القبلية، وتزعمهم لبعض الطرق الصوفية في مناطقهم وارتباطهم بالطرق الأخرى ، وهذا يعود في الأساس لقوة شخصية هؤلاء الزعماء ، وتأثيرهم الكبير على الأفراد والجماعات التي ينتمون إليها بحكم الوراثة . وكان لتكوينهم الديني مبعث قوي في التنشئة والتربية الاجتماعية ، فمعظم هؤلاء تدرجوا في استيعاب الدين الإسلامي بدءا من حفظ القرآن الكريم أو جزء منه ، وتتلمذهم على مشائخ وفقهاء ، وانتقالهم نحو المنارات الإسلامية شرقاً وغرباً ، بغية الاستزادة في طلب العلم ، واحتكاكهم بالثقافات والطرق الإسلامية عبر المراكز التجارية التي تعبرها طرق القوافل ، وطريق الحج الذي يعرف (بطريق الحاجية) ، وكانت الأماكن المقدسة (مكة والمدينة) منطقة التقاء الأفكار ، ومناقشة هموم الأمة الإسلامية ، والتحديات التي تواجهها من قبل المعتدين .

وعند عودة هؤلاء الزعماء من رحلات الحج إلى بلدانهم ، نراهم قد اكتسبوا مكانة معنوية عالية في نفوس السكان من حولهم ، وهذا الأمر مكنهم من الدعوة إلى الجهاد وتحشيد المجاهدين في جبهات ، وتكوين فرق قتالية لمحاربة الفساد والوثنية والاستعمار باعتباره واجباً دينياً ، ومعظم قادة الطرق الصوفية حاولوا إضفاء هالة من القداسة على شخصهم .

والجهاد ، طالما ارتبط بالدين ، فإنه يتجاوز الحدود الجغرافية للبلدان ، ويصبح الدفاع عن العقيدة والمسلمين وحرماتهم من الواجبات المقدسة . ومن الصور المشرفة لمحاربة الاستعمار في الوطن العربي من منطلق إسلامي ، تضامن الشعب الليبي مع الشعب المصري إبان الحملة الفرنسية 1798 -1801 على مصر ، والتي تعد فاتحة الاستعمار الأوربي الحديث (فرنسا وبريطانيا) ، في تقاسم الوطن العربي ، والذي شكل

صدمة قوية للمجتمع العربي الإسلامي . فسرعان ما انتشرت أخبارالاعتداء على هذا القطر في أرجاء العالم الإسلامي ، وتناقل الأخبار الحجاج الذين التقوا أثناء أداء المناسك الدينية في (مكة والمدينة المنورة) ، فالمقاومة المصرية الشجاعة لقوات الاحتلال ، والتي قاد مشعلها الأزهر الشريف ، وجدت استجابة وردة فعل وتعاطف وتضامن معنوي من كافة المسلمين .

وأثناء أزمة الاحتلال والمقاومة المصرية قد توقع الفرنسيون المحتلون أن الحجاج المغاربة لن يمروا بالأراضي المصرية ، نظراً لاضطراب الأحوال جراء سيطرتهم على مصر ، ولكن الواقع أنه في سنة 1799 قدمت قافلة من الحجاج المغاربة تربو عن عشرين ألف حاج ، اخترقت الأراضي المصرية ، ووصلت أنباء للسلطات الفرنسية أن هؤلاء الحجاج كانوا مسلحين بالبنادق والذخائر ،[1] وهذا الأمر أربك وأقلق القيادة العسكرية ، وأصدرت أوامر لعساكرها بحصر إقامة الحجاج في منطقة محددة ، تكون تحت السيطرة والمراقبة من قبل القوات الفرنسية ، وإجراء تحقيق معهم وتفتيشهم، وتشير المصادر أنه عثر على بعض الأسلحة ، وتمت مصادرتها .

والجدير بالذكر أن هناك مجموعة تزيد عن ثمانين حاج ، تسللت عن أنظار الحراسات والمراقبة نحو القرى المصرية ، ورفعوا شعار (الجهاد أفضل من الحج) ويقول الجبرتي: "إن هذا الشعار كان شبه إجماع بين الحجاج المغاربة"، ويعني تعطيل هذه الفريضة والشعيرة في تلك السنة مقابل رفع السلاح ومقاومة المحتل وتحرير ديار الإسلام من دنس الكفار المحتلين.

وهكذا قدر النجاح لمجموعة الشيخ محمد المهدي الدرناوي الليبي الذي كان يحرض المصريين على الجهاد ، وقاد إعدادا غفيرة من الليبيين الحجاج ، والمصرين في معارك مباشرة ضد القوات الفرنسية في دمنهور وسمنهور والرحمانية ، وقدرت القيادة الفرنسية أن قوات المجاهدين تجاوزت تسعة عشر ألفا بين راجلين وفرسان ، وقد دخلت في معارك مباشرة كبدت فيها المحتل الفرنسي خسائر كبيرة ، إلى أن استشهد محمد الدرناوي في إحدى المعارك ، وهذا لون من التلاحم بين المسلمين في ملاقاة

(1) وكان من الطبيعي أن قافلة الحجاج التي ضمت المئات وأحيانا الآلاف تحتاج إلى رجال مسلحين ، يحمونها من شر قطاع الطرق ، ولكن هذه المرة فالسلاح كان يزيد عن حاجة القافلة ، وهذا يفسر استعداد حجاج المغاربة في الدخول في المعركة بسلاح ، تم إخفاؤه حين تحين الفرصة ، وهذا ما حدث بالفعل.

العدو .[1]

ويلاحظ أنه ليس بالضرورة أن يكون الدافع الديني محركاً للجهاد وقتال الأعداء عند بعض الزعماء ، فالزعيم ساموري مثلاً في النيجر ، كان أقل حدة عن غيره من الزعماء المسلمين ، فلم يكن مثل الحاج عمر الذي أعلن الجهاد ضد الوثنيين ، وضم أراضي جديدة ، وكون إمبراطوريته من التوكولور على أساس ديني ، فقد كان هدف ساموري الرئيسي هو تكوين إمبراطورية من الماندنجو تسيطر على أعالي النيجر.

وبعد أن حققت فرنسا سيطرتها على غرب أفريقيا ، من خلال احتلالها للسنغال والنيجر ، اتجهت الفيالق الفرنسية نحو تشاد لمد نفوذها على بحيرة تشاد التي تربط المناطق بعضها ببعض .

وقد ترتب على هذا الزحف نحو تشاد اصطدام القوات الفرنسية برابح الزبير الذي لا يقل صلابة عن غيره من الزعماء الأفارقة الذين اصطدمت بهم فرنسا. فقد استطاع نشر الإسلام بين القبائل الوثنية ، وعمل على تشكيل قوات لمحاربة الغزاة الفرنسيس من خلال تحالفه مع السيد المهدي السنوسي ، الذي ربطته معه مصاهرة ، واتفق الطرفان على الحد من نفوذ الفرنسيين وحماية البلاد من تسرب البعثات الفرنسية ، وقد تمكن رابح من تكوين دولة إسلامية ، ودخل في معارك ضد القوات الفرنسية .

ومن خلال دراسة بعض المؤثرات الدينية في الجهاد ، نجد نظام البيعة الذي ظهر كمصطلح سياسي إسلامي ، يعني السمع والطاعة والدفاع ، وهو مستوحى من مبايعة الرسول ﷺ أثناء بيعة العقبة (الأولى والثانية) بهدف نصرة دين الله وحماية رسوله ، هذا المفهوم تطور عبر المراحل التاريخية عند الخلفاء الراشدين ، ومن تبعهم من الخلفاء والحكام ، وإن تغيرت الظروف والشرعية والكيفية التي تنتزع منها البيعة ، وتعددت الأهداف الكامنة من وراء البيعة التي أصبحت تصب في تثبيت الحكم ، وإضفاء الشرعية عليه .

ومع مرور الأزمان ، نجد نظام البيعة يعود في ظل الأزمات السياسية التي تعصف بالدول والممالك ، وحين غزت القوات الفرنسية الجزائر 1830 ولم يعد للسلطة العثمانية وجود على الساحة الجهادية ، فاضطربت أحوال البلاد ، وعمت الفوضى ، وكثر

(1) محمد عبد الكريم الوافي ، يوسف باشا القرامانلي والحملة الفرنسية على مصر، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس ليبيا، 1984، ص 310.

الشقاق من جراء فقدان السيطرة الرسمية التي تضبط مصير الأمة ، وتسوس مصالح الناس. وأمام هذه الأحداث الخطيرة التف المسلمون وعلماء منطقة وهران ، وبايعوا الأمير محي الدين (... إن الله يحمي بالسلطان ما لا يحمي بالقرآن ، في الوقت الذي ظهر فيه أعداء الله الكافرين وقد ملكوا كثيرا من بلاد الإسلام ... وتشتت الكلمة واختل النظام ولم يجد الناس لقتالهم سبيلاً ، ولا من يكون للجهاد دليلاً فلجؤوا إلى الله تعالى وسألوه أن ييسر لهم من يقوم بأمر دينهم) ، فطلبوا منه أن يبايعوه على السمع والطاعة ، فاعتذر إليهم بكبر سنه ، واستقر رأيهم على مبايعة ابنه عبد القادر الذي قاد حركة المقاومة لسنوات .

وحين اشتدت المقاومة الشعبية الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي أعلن زعماء القبائل أن "المقدمين وشيوخ الطرق هم المثقفون الوحيدون في البلاد، قد قرؤوا على جماعتنا رسالة من محيي الدين الأمير السابق عبد القادر، الذي قدم إلى الجزائر على الرغم من إرادة أبيه ، معلناً فيها : "لقد قدمنا لانقاذ الإسلام الذي هو في خطر ، إن الله سيهلك الفرنسيين إذ لم يبق لهم لا أراضي ولا جيشا ، إن ساعة انطلاقتكم قريبة جداً وخلاصنا مؤكد ... خذوا حذركم ...". (1)

ومن مظاهر التضامن الإسلامي في مكافحة الغزاة ، ظهور شخصية إبراهيم سراج الدين ، وعدد من المثقفين في مدينة طرابلس ، مؤسس الجمعية السرية سنة 1882-1892 التي تسعى لاستنهاض جميع المسلمين في طرابلس ، وبقية العالم الإسلامي الذي يناهض قوى البغي والكفر ، فهو كغيره من جيله المثقفين يدرك الأخطار المحدقة بالعرب والمسلمين ، ويقول خلال خطبة الجمعة التي كان يلقيها في مسجد الناقة بطرابلس : "فالغزو الأوروبي يهدد أركان الدولة ، وإن أي تخاذل من جانب العرب وعدم القيام بالواجب في التصدي للعدو سيجلب العار والخسران ، ومصيرهم في الدنيا نيران العدو وفي الآخرة نار جهنم ، ويتساءل بماذا سيجيب هولاء عند لقاء ربهم يوم القيامة لتفريطهم في الجهاد في سبيل الله وبذل الدماء في مدافعة القوم الكافرين" .

ويقول أي معنى للحياة في ذل وهوان ، ثم ما هو جزاء من ترك الدفاع عن الدين وعزة الوطن والديار والذود عن الأهل والأموال وأماكن العبادة ، فهو يدعو الى تعبئة

(1) عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، 1816-1871 ، الدار التونسية للنشر، 1972 ، ص 113.

النفوس من خلال مخاطبتهم باسم الـدين ونـصرة الله ، ويـدفع النـاس إلى كثـرة التـزاور والسياحة بغرض استمالة المسلمين للوقوف معهم ، ويجـب تحـريض رؤسـاء العـشائر والقبائل وغيرهم من أهل الارتبـاط والعـصبيات ، وهنـا يركـز علـى مخاطبـة الزعمـاء ويقول: إن الكلام من غير الرؤوس قليل نفعه وخفيف وقعه ، والهجرة علـى مـن في دار الحرب من المسلمين واجبة ، ولا سيما إذا كان المهاجر ممن ينتفع المسلمون بسيفه أو قلمه وبعلمه وعمله ، فمن كان يريد ثواب الدنيا ، فعند الله ثواب الدنيا والآخرة .

ومن المعلوم أن هذه الأفكار ربما مستوحاة من فكرة الجامعة الإسـلامية ، حيـث رفع لواءها عدة شخصيات إسلامية وعربية ، وهناك افتراض لم يثبت صحته لعدم ظهور الوثائق، وهو أن سراج الدين قد يكون في مهمة سرية جهادية لرفع معنويات المسلمين وحثهم على الجهاد ومقاومة الاستعمار . فيقول سراج الدين : ... والمسلم إن كـان قـادرا فالجهاد واجب عليه بلسانه ويده ، وإن كان عاجزاً ، فعليه البكاء واستبكاء القاسية قلوبهم علـى المستـضعفين مـن الرجـال والنـساء والولـدان مـن المـسلمين في مـشارق الأرض ومغاربها .

ويقول أيضاً: إنه ينبغي لكل عربي أن يعلم أنـه مـن أسـفه أجيـال العـرب الـذين حفظوا لغتهم وشرفهم منذ خمسة الف سنة تقريباً إن لم ينصرهم فإنهم حفظوا وأضـاع ثم صار ترساً لعدوهم محقاً له واستعجالاً إلى النار :

ثم يختم رسائله بأبيات شعرية :

أهل الجزائر والإسلام دينكمو وكلكـــم سيد لا يقبـل العارا

ذبوا عن الأهل والأوطان واتفقوا جمعاً وكونوا لدين الله أنصارا[1]

وفي جنوب الصحراء حيث الممالك الإسلامية والطرق الصوفية تنشط في مقاومة الجهل والكفار في آن واحد ، فالـسودان تعـرض كغـيره لقـوى العـدوان مـن الإسـتعمار الإنجليز ، فظهرت شخصيات إسلامية قادت حركـة المقاومـة ، وعلـى رأسـهم الحركـة المهدية .

فكان للتكوين التربوي الديني لمحمد أحمد المهدي منذ صـباه المبكـر المـرتبط بالتقوى والورع والزهد والانخراط في الطريقة السمانية الـصوفية ، أثـر في تبلـور فكـرة

(1) محمود أحمد الديك ، رؤية جديدة حول قضية إبراهيم سراج الدين ، مجلة البحوث التاريخية .

المهدي المنتظر ، وقد أحاط دعوته في البداية بالسرية التامة ، فقبل الجهر بالدعوة طاف بالأقاليم السودانية المختلفة داعيا الناس للتمسك بالدين ، وطالبهم بالجهاد في سبيل الله وشدد عليه كوسيلة للتخلص من ظلم الحكام ، ووجه أتباعه بتقديم البيعة والهجرة ، وكان لسلوكه وورعه وتقديم العظة وتأليف القلوب ، وإمامته بالمصلين وتوليه القتال بنفسه أثر في التفاف الناس حوله ، وهو بذلك يقتفي أثر الرسول ﷺ أثناء بداية الدعوة المحمدية .

ولقد أضفى المهدي على حركته صفة القداسة ، وادعى بأنه المهدي المنتظر وخليفة رسول الله ، وجسدها في راياته التي رفعت بمعركة جزيرة (آبا) ، وتشبه بالرسول أثناء هجرته في مناطق السودان في إطلاق بعض التسميات على أعوانه ، ومن سانده بالمهاجرين والأنصار، في محاولة لتوحيد الصفوف من منطلق ديني لخوض الجهاد ضد الكفار.

ورغم الهزيمة العسكرية التي منيت بها الحركة المهدية ، بعد سلسلة من المعارك والانتصارات ، فقد غرست في الأجيال اللاحقة روح الإيمان بعدالة قضيتهم وأيقظت فيهم روح وجذوة المقاومة ، حيت انتصر الشعب السوداني على عدوه الاستعمار البريطاني.

إن فرض الحماية الفرنسية على المغرب الأقصى سنة 1912 ، قوبل بالكفاح الشعبي المسلح للتصدي للقوة الغاشمة ، وكان لظهور شخصية عبد الكريم الخطابي كبطل ، أثر كبير في قيادة الثورة وحركة الجهاد ، وكان المغرب الأقصى مهيئاً لاستقبال الحركات الدينية المجددة التي تشهدها القارة الأفريقية والمشرق العربي ، وبرزت عدة شخصيات علمية دينية ، منها ما قام به السيد محمد بين العربي العلوي في تدريس وتوجيه الأتباع نحو الدفاع عن الوطن ، ورفض الوجود الأجنبي على أرض العرب وتحفيز الناس للجهاد الوطني ، وكان الشعب المغربي ينظر باعتزاز إلى الإسلام الذي وحد صفوفهم في التصدي للمعتدي ، والحفاظ على عروبتهم ودينهم الإسلامي من الفرنسة والاستلاب الحضاري .

الزوايا والطرق الصوفية وأثرها في الجهاد الليبي

كان من بواعث الجهاد العربي الليبي المحتوى العقائدي الذي أعطى لشخصية الإنسان العربي الليبي ملامح صوفية ، تركزت حول النصر أو الشهادة ، ذلك المقياس

أعطى زخماً من القدرة على التضحية لدى كل فرد من أفراد الشعب العربي الليبي ، فـلا قيمة للحياة دون أن تعطي للإنسان خلوداً في الحياة الآخرة ، تظللـها الـشهادة في الـدفاع عن الدين والوطن . لذلك حمل الجهاد في حركته ومواقعه ملامح دينية ، ذلك أن الدفاع عن الدين والوطن كان دافعاً للمجاهدين في سبيل الله والوطن.

وعبثاً حاول الضباط العثمانيون في بدايات المعـارك والتقـاء المجاهـدين الليبـيين بالقوات الإيطالية ، أن يثنـوهم عـن المجازفـة والتهـور في الهجـوم ، فمجـرد أن يـسمع المجاهدون صرخة وصحية أحد المجاهـدين ، وهـو يهلـل ويكـبر (الله أكـبر) ، ينـدفع المجاهدون في أتون المعركة في حماس وشجاعة ، لا حد لها وسـط الرصـاص ، غـير مبالين بسوى الظفر بالعدو ، أو نيل الشهادة ، ويشير الطـاهر الـزاوي إلى أن الـشيخ عبـد الرحمن بن عبد الحميد البشتي كان يحرض المجاهـدين علـى الجهـاد وملاقـاة العـدو، مردداً بعض آيات القرآن الكريم التي تحرض على الإقدام بقولـه تعـالى﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾(1) ، ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾(2). (3)

ومن العناصر الحيوية في حركة الجهاد عودة الكثير من المهاجرين الليبـيين مـن ديار الهجرة ، سواء الذين كانوا في استنبول ، أو في غيرها من ديار الإسلام ، طوعاً حال سماعهم بنبأ الغزو ألإيطالي ، وعلى رأس هؤلاء المهاجرين شخصيات ذات صيت ولها نصيب كبير من التعليم والثقافة ، قامت بدور محـوري ، أمثـال الـشيخ سـليمان البـاروني الذي كان يقيم مع بعض الزعماء ، سواء في تركيا أو في غيرها من دول الجـوار، وكـان في معية هولاء عدد من الضباط الليبيين والأتراك، ، فهؤلاء كان لهم دور كبير في تدريب المجاهدين على السلاح وفن القتال .

لم يقتصر دور الزوايا على تحفيظ القرأن ودراسة الفقـه وتـلاوة الأذكـار والـورود فحسب ، بل كانت مقراً ومأوى للمجاهدين ينهلون من معينها القوة المعنوية التي تعينهم في أداء دورهم النضالي الجهادي .

وبمجرد أن وطأت أقدام الغزاة أرض الليبية تنادى الليبيون جميعاُ لمقاومة العدو، وكان رؤساء ومشائخ الزوايا في طلائع المتطوعين ، حيث كونوا رافداُ أساسـيا في إعـداد

(1)محمد: من الآية7 .

(2)التوبة: من الآية14 .

(3) الطاهر الزاوي ، جهاد الأبطال في طرابلس الغرب ، دار المدار الإسلامي ، ط 4، 2003، ص 104.

المجاهدين معنوياُ وعسكرياُ وتجهيزهم بالتموين والسلاح . وظهرت مصطلحات عسكرية تنظيمية في حركة الجهاد ، منها تأسيس الدور في المنطقة الشرقية والصفوف في المنطقة الغربية .

فالزوايا الدينية في ليبيا قامت بدور مهم في حركة الجهاد ، فقد أصدر أحمد الشريف أمراُ لجميع إخوان السنوسية من مشائخ زوايا البلاد ووكلائهم بترك من ينوب عنهم فيها وذهابهم إلى المعسكرات الحربية ، لاستلام مهامهم الجهادية . فكان منهم القضاة وأئمة المساجد بالمعسكرات والوعاظ ، وغير ذلك من الأعمال المهمة ، فوجودهم يعد زاداُ مهماُ في إيقاظ النفوس وحثها على محاربة أعداء الدين والوطن ، وإن تنامي الوعي الديني في معظم الجبهات القتالية أزعج الإيطاليين ، وباتوا يحسبون حسابات للمشائخ والزوايا .

ومن الصور الجهادية الناصعة لليبيين التي تعدت حدود أقاليمها ومناطقها الجغرافية ، لتصل لمواقع في وسط الصحراء الأفريقية ، حيث نداء الواجب والجهاد، يستصرخ المجاهدين من القبائل الليبية التي كانت تستوطن في وسط وجنوب الصحراء، على موعد مع أخوانهم في مقاتلة الأعداء الفرنسيين في منطقة تشاد ، وتشير المراسلات المكتوبة بين السلاطين إلى المشاورات والتدابير في مواجهة العدو .

وخاض الليبيون قتالاً مريراً ضد الاستعمار الفرنسي ، بقيادة أحمد الشريف ورفاقه مثل عمر المختار والساعدي البراني ، وعبد الله الطوير، وأبو العريضة البرعصي وغيرهم ، حيث شكلوا دورا في كانم ضم قبائل الشريدات ، الحبوات ، القذاذفة ، المغاربة ، أولاد سليمان ، والقرعان ، وتم تنظيم دور آخر في بسكرة بقيادة صالح بو كريم يتألف من المجابرة ، والقذاذفة، وأولاد سليمان ، والقرعان ، وكذلك دور عين كلكة ، يقوده الساعدي البراني يتكون من المجابرة والزوية ، والطوارق . وهذا التنادي الذي كان مبعثه الجهاد ورد كيد الكفار استمات بضراوة وسقط العديد من الشهداء ، ولكن بالنظر لتفوق السلاح المتطور لدى الفرنسيين ، فقد سقطت بئر علالي في أيدي القوات الفرنسية في 1902/11/22.

إن تعلق الأهالي بشخصية أحمد الشريف كقائد لحركة الجهاد في المنطقة الشرقية ، ينبع من قدرته الحكيمة في إدارة دفة شؤون المجاهدين الدينية والدنيوية ، وذلك من خلال إصدار عدة أوامر تنظيمية ، منها الخراج عن الغنم والإبل والغلال والنخيل ، كما جعل القضاء وإقامة الحدود والتوفيق في الخلافات بين القبائل حسب

الشريعة الإسلامية ، الأمر الذي نتج شاع فيه الأمن والطمأنينة ، وتم توحيد كلمة الجهاد نحو عدو الدين والوطن ، وكان أحمد الشريف يتلقى الدعم المادي من سلاح وأموال من أفريقيا . إن الصفات الأخلاقية الدينية التي كان يتمتع بها السيد أحمد الشريف ، ومكانته الرفيعة لدى الأهالي وحسن قيادته التنظيمية لحركة الجهاد التي كان يتمتع ، جعلت السلطان العثماني في صيف 1915 يعينه بمرسوم وكيلاٌ للخلافة الإسلامية بأفريقيا. وهذه المسؤولية ترتبت عليها التزامات أخلاقية حين دعاه السلطان العثماني إلى إعلان الجهاد على الإنجليز في مصر، وتأليب المسلمين لمجاريتهم .

وهذه المسألة اختلف فيها المؤرخون ، أي تورط السيد أحمد الشريف في حرب غير معني بها ، خصوصاُ وهو يقاوم الاستعمار الإيطالي ، وكانت النتيجة هزيمته أمام القوات الإنجليزية وانسحابه نهائيا من المعارك ، وفضل الهجرة إلى تركيا.

وتعد زاوية الشيخ عبد السلام الأسمر بزليتن ، إحدى المعالم والمنارات العلمية التي أدت دورها المزدوج إبان فترة السلم وفي زمن الحرب ، ومن بين المجاهدين الذين اختاروا الإقامة الدائمة ، في هذه الزاوية المجاهد مصطفى الجزائري الذي لقب بالجزيري ، حيث وجد الزاوية عامرة بالطلاب وتمكن من الإقامة في إحدى الخلاوى بصورة مجانية ، وتعلق بها كثيراً وجعلها نقطة انطلاق له نحو المناطق المجاورة ، وخلال إقامته تعرف على مجموعة من المشائخ ، أمثال الشيخ محمد والمهدي بن محسن ومحمد بن حمودة ، ناظر الوقف .

وارتبط بعلاقة وطيدة مع الشيخ مختار جوان الذي أعطاه بندقية وذخيرة حيث قاتل معه وكان تحت قيادته ، وكان له صديق يدعى عبد القادر الفزاني رفيقه في المعارك ضد الغزاة الطليان . وكان ديدن الطلبة بين تأدية واجب الجهاد والمشاركة في المعارك، ، ثم العودة إلى زاوية الشيخ .

وقد شارك المجاهد مصطفى في عدة معارك من بينها القليب وفي عين كعام وفي السند ، وفي وادي ماجر، ولم يتخلف عن معركة منذ ابتدأت الحرب فيها حتى انسحب الإيطاليون وخرجوا منها. ومن المواقف التي نقلت عن المجاهد مصطفى الجزائري أنه أثناء عودته من معركة راس الطوبة في مصراتة ، أرسل إليه قائمقام زليتن عبد بن إدريس مع الشيخ محمد شميلة ودعاه للقدوم ليقرأ معه الحزب ، فرد عليه بقوله: "الوقت وقت حرب وليس وقت قراءة الحزب ، ابعث لي بمائة قنبلة" ، وأثناء عودته لزاوية الشيخ من إحدى معاركه خارج زليتن يشير إلى أنه وجدها مليئة بالجرحى ، ولا ندري إن كانت

الزاوية تستقبل الجرحى ، وهل يتم علاجهم فيها ؟ .[1]

من بين ردة فعل المجاهدين في ليبيا نبأ سماعهم نشوب الحرب العالمية الأولى ودخول تركيا الحرب ، أعطى هذا الخبر بريق أمل وبعث في النفوس حماس الجهاد من خلال دعوة شيخ الإسلام في استنبول المسلمين للجهاد ، ومناصرة إخوانهم في الدين. وقامت الصحف الرسمية والأهلية بدور فعال في إذكاء روح الجهاد والتنديد بجرائم القوات الإيطالية ضد الشعب الليبي ، وتناول الصحفيون الكثير من الأحداث ولمعت عناوين الصحف التي خرجت إبان الهجمة الاستعمارية على بلاد الإسلام تحمل عبارات مناوئة ومحرضة على الجهاد منها : "الاتحاد الإسلامي" ، التي كانت تصدر بتونس ، كتبت في 7 نوفمبر 1911 عدة مقالات تعبوية مثل: (على الباغي تدور الدوائر) بقلم عبد الرحمن الكعاك ، تشير فيها إلى هجوم الاستعمار الإيطالي على ليبيا الآمنة في غفلة من أهلها ، حيث قتلت وشردت وانتهكت الأعراض والحرمات، ووصفها بصنيع قطاع الطرق وقرصنة العصور الأولى .[2]

وكان لإحداث الاعتداء الإيطالي على الشعب الليبي أصداء ، وردة فعل متباينة في معظم أرجاء العالم الإسلامي ، حيث أظهر المسلمون عواطف وشعورا بالتلاحم، والتضامن من خلال قيام عدة مظاهرات معادية لإيطاليا في القاهرة ، والإسكندرية ، وفي المدن التونسية ، بل في الهند وفي إيران وفي جزيرة جاوه البعيدة ، وتكونت حركة لجمع التبرعات في معظم بلدان العالم الإسلامي .

وهناك مجموعات من المجاهدين شاركت بشكل مباشر في المعارك الحربية والسياسية ، وتعتبر حركة الجهاد الليبي ، التي كان محركها العامل الديني ، جعلت ظاهرة التطوع التلقائي من قبل أشخاص وهيئات وجماعات من كل أطياف العالم الإسلامي ، سمة تميزت بها هذه الحركة ، والنماذج كثيرة يفخر بها الليبيون أثناء ذكر مآثر رجال حركة الجهاد ، منهم علي امبارك اليمني ، ومحمد الغباجي ، والأمير علي باشا حفيد الأمير عبد القادر الجزائري ، وعصمان الشامي ، والأمير شكيب أرسلان ، ونجيب الحوراني ، وصالح حرب ، وجلال البيروتي ، وخضر آغا ، وعزيز علي

(1) محمد ميلاد مبارك ، المجاهد مصطفى الجزائري ، شيء عن حياته وجهاده ، الشهيد ، العدد السابع والثامن ، مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ، 1988، ص 180.

(2) محمد صالح الجابري ، مصدر سابق ، ص 224 .

المصري ، وعبد الرحمن عـزام ، وسـليمان العـسكري ، وطـارق الأفريقـي ، وكوسـن ، وغيرهم كثير من أبناء الأمة العربية والإسلامية.

وفي إطار نـشاط المهـاجرين الليبيين في بـلاد الـشام قيـامهم بتأسـيس الجمعيـة الطرابلسية البرقاوية ، ومن بين أعمال اللجنة طبع كتاب ، يحتوي معلومات ووثائق عـن نضال العرب الليبيين في وجه الغـزو الإيطـالي ، ويفـضح أسـاليب الإيطـاليين القمعيـة، وممارستهم اللاإنسانية على أفراد الشعب الليبي ، ووصـولا إلى هـذه الغايـة ، فقـد قامـت اللجنة بتنظيم رسائل إلى عـدد مـن الزعمـاء الليبيين الـذين شـاركوا في الجهـاد . وقـد أصدرت اللجنة كتابا بعنوان: (فظائع السود الحمر أو التمدن بالحديد والنار) .

وقامت اللجنة بتوزيع الكتاب بشكل كبير في سائر الأقطـار العربيـة والإسـلامية ، وترجم منه بعض الفصول إلى اللغة الفرنسية من قبل الجالية الليبية ، وأرسل إلى باريس وجنيف وغيرها ، وتم طبع أكثر من 20 ألف نسخة من هذا الكتـاب علـى نفقـة أفـراد الجاليـة الليبيـة ، بالإضـافة إلى هـذا ، فقـد أصـدرت اللجنـة مجموعـة مـن المناشـير والمطبوعات الأخرى ، قامت بتوزيعها في الأقطار العربية والإسلامية .[1]

وقد تمكنت الجالية الليبية ، في دمشق ، أن تجعل السوريين يتبنون القضية الليبيـة في ظل سيطرة السلطات الفرنسية ، التي لم تستطع منـع الليبيين مـن ممارسـة نـشاطهم السياسي ، خوفا من الشعب السوري ، كما لم تستطع القنـصلية الإيطاليـة بـث دعايتهـا ، كما فعلت ذلك في مصر وغيرها مـن البلـدان العربيـة ، لقـد كانـت الجمـاهير الـسورية صارمة في وقفتها ضد الإيطاليين .

وقد امتد لهيب الثورة الشعبية ضد فضائع الإيطاليين بحق الشعب الليبي إلى سائر المدن الشامية ، وكان أهمها ما وقع في مدينة طرابلس الشام عقب صلاة عيـد الأضـحى في 28 أبريل 1928 ، حيث قام خطيب المسجد بعرض ما جاء في منشور الاسـتعانة الذي نشره الليبيون في الشام والحجاز ، فالتهبت مشاعر المصلين ، وخرجوا في مظاهرة عارمة طافت في المدينة ، منددة بإيطاليا، وحاصرت القنصلية الإيطاليـة ، وقـد تـدخلت القوات الفرنسية لتفريق المتظاهرين ، الأمر الذي نجـم عنـه سـقوط العديـد مـن القتلـى والجرحى ، وتم اعتقال مجموعة من المتظاهرين وحكم على بعضهم بالسجن وغرامـة مالية .

(1) المصدر السابق ص 65 .

وكانت هذه التظاهرة وغيرها تعد تضامنا من الشعب السوري لإخوانهم الليبيين ، وباشرت عدة هيئات سياسية ودينية سورية ، من تلقاء نفسها ، إصدار المنشورات التي تؤيد القضية الليبية .

وفي تونس البلد المجاور لليبيا ، كانت الأحداث التي تعرضت لها البلدان من قبل الاستعمار، سواء الفرنسي االإيطالي ، لها تأثير سريع في الأوساط الشعبية ، وموقف الشعب التونسي رغم وقوعه تحت السيطرة الفرنسية ، لم تثنه من الوقوف مع شقيقه الشعب الليبي في محنته ، بالدعم المادي والمعنوي ، وكانت أرض تونس ملاذاً وملجأ من بطش القوات الإيطالية الغازية ، وكانت معركة الزلاج بتونس إحدى الملاحم البطولية التي امتزجت فيها الدماء الليبية ، والتونسية ، والجزائرية ، والمغربية والسودانية ، ضد المستعمر الفرنسي بتحالف مع الجالية الإيطالية بتونس.(1)

ويبدو أن خطاب المقاومة (الجهاد) لدى الشعوب المستعمرة والمستضعفة والمغلوبة ، كان مشبعاً بالثقافة والدين والاعتزاز بالتاريخ القومي (الوطني) ، وهذا متمثل بجلاء ، حين نتعمق في دراسة الثورة الجزائرية بشكل خاص ، وحركة الثورة في أفريقيا بشكل عام . فيما يتجاوز هذا الخطاب كونه معوضا نفسيا وعاملا أساسيا في التعبئة الجماعية من أجل البناء والتجديد ، وتجاوز قابلية الاستعمار وتجاوز ثقافته.(2)

الشعر والجهاد

الشعر كلام موزون له إيقاع موسيقي ينظمه الشعراء حسب المناسبة ، فقد نبغ العرب في شعر المديح والهجاء والرثاء والوصف وإثارة المشاعر نحو بعض القضايا ، والاحتلال الإيطالي لليبيا من الأحداث التي هزت أركان العالم الإسلامي ، وتعاطف معها العرب والمسلمون في أغلب أصقاع الدنيا ، فكان الشعر وسيلة ولغة إعلامية لها أثر كبير في تحريك شعور المسلمين ، واستنفارهم وتضامنهم مع أشقائهم الليبيين الذين يجاهدون الكفار، فالشاعر معروف الرصافي يقول في قصيدته (إلى الحرب) :

ألست تراهم بين مصر وتونس أباحوا حمى الإسلام بالقتل والنهب

(1) ابراهيم أحمد أبو القاسم ، دراسة تاريخية حول البعد القومي لمعركة الزلاج 7 نوفمبر 1911. مجلة الشهيد ، العدد التاسع 1988، ص ، 9-18 .

(2) وجيه كوثراني ، الذاكرة والتاريخ في القرن العشرين ، دار الطليعة ، بيروت ، 2000 ، ص 34.

إن الأحداث المؤلمة التي أصابت الليبيين من قبل جحافل الطليان ، أثارت الشاعر محمد عبد المطلب ، حين أفزعه صارخ الإسلام من برقة المجاهدة ، واستنفر المسلمين جميعاً للذود عن حماهم بقوله :

نعـم راعني من نحو برقة صارخ يهيب بأنصـار الهلال ألا اركبوا
كأني بـــه يدعـو الخلافة مسمعا كأنـي بـه فـي المسلمين يثوب
أرادت حمى الإسلام روما فأقبلت زعـانفها فـــي بغـــيها تثعلب

وتناول الشعراء محنة الليبيين في قصائدهم ، يحثون على الجهاد في العالم الإسلامي بالأموال والأرواح واغتنام إحدى الحسنين : النصر أو الشهادة ، مستلهمين عباراتهم من القرآن الكريم ، ويحرضون بني عثمان والعرب على استنهاض المستصرخين ، ومن ذلك الشاعر محمد سعيد العباسي بقوله :

ألا يا بني عثمان والعرب الألى مضوا وهمُ في الكون أنجمه الزهر
عليكم بإحدى الحسنيين فإنها هـــي الظفر المبقى علاكم أو القبر
فقد بعتموا أموالكم ونفوسكم علـى الله والأثمان عـن ذلك الأجر
ألا هكـــذا سار الأوائل منكم يعدونـه ذخراً ونعـم هـو الذخر [1]

(1) جاد المولى علي الحرير ، الجهاد الليبي عند شعراء الأقطار العربية ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، 1991 ص 71.